المنهج الديكارتي وأثره في الميتافيزيقا والاخلاق

م . م . رشا حميد صالح
كلية الآداب – جامعة الموصل

الكلمات المفتاحية: ديكارت ، المنهج ، ميتافيزيقا ، الاخلاق

الملخص:

يضع ديكارت الاطار العام للفلسفة - كما يراها هو - عندما يشبهها بشجرة جذرها علم ما بعد الطبيعة وساقها علم الطبيعة واغصانها المنبثقة عنها بقية العلوم التي يحصرها في ثلاثة: علم الطب ، وعلم الميكانيكا ، علم الأخلاق . فالناظر في فلسفة ديكارت وموقف ديكارت من الفلسفة يستطيع ان يصل بسهولة الى انه يهدف الى امرين : الثقة بالله تعالى العليم الحكيم والثقة بالعقل البصير ، لأنها فلسفة العقل الذي يفتح للإنسان افاق المعرفة والعلم ويغزو بنورعالم السماء والارض ومع حسن استعمال الانسان لعقله البصير ، ومع دوام ثقته بالله تعالى مبدع الكون يسعد الانسان ، ويحتفظ بصحته ويحقق السلام بين بنى الانسان افرادا وجماعات . ويبدو من تصوير ديكارت للفلسفة على النحو المتقدم انه يتخذ من المبادئ العليا والحقائق الميتافيزيقية فيما وراء الطبيعة اساسا لبناء فلسفته، وانه يعتمد على العقل اولا وبالذات في منهجه ، وقد رفض ديكارت كل معارف سابقة، أن يبدأ في نقطة ثابتة، تصلح أن تكون أساسا لتفكيره ، ودعامة لبناء مذهبه الفلسفي في الطبيعة وما وراء الطبيعة. فكان كما يقول هو نفسه ، يترك الأرض الرخوة والرمال ليقف على ارض ثابتة صلبة، واذا كان ارخميدس جد في طلب نقطة ثابتة غير متحركة ليستطيع نقل الكرة الأرضية من مكانها إلى مكان اخر، فان ديكارت يعطي نفسه كذلك من الحق ما يخول له ان يعلق - آن اسعده الحظ كما يقول - اكبر الآمال على وجود شيء يقيني لاشك فيه. وان اصدق الاشياء لديه واوثقها عنده قد اكتسبها بالحواس ، لقد أظهرت تجربته الحسية، في بعض الأحيان، معطيات ذات دلالة فلسفية، الأمر الذي شكّل حافزًا لاعتمادها إطارًا معرفيًا ممهّدًا لبناء نسقه الميتافيزيقي، ومغذّيًا لمرتكزاته النظرية.

المقدمة:

رينيه ديكارت فيلسوف وعالم رياضي وفيزيائي فرنسي وهو الشخصية الرئيسية لمذهب العقلانية في القرن 17، كما كان ضليعا في علم الرياضيات فضلا عن الفلسفة واسهم اسهامات كبيرة في هذه العلوم، وديكارت هو صاحب المقولة المشهورة انا افكر اذن انا موجود. ومثل

مشروعه الفلسفي لحظة تأسيسية في تاريخ الفكر الغربي، حيث دشّن نقلة نوعية من اليقينيات اللاهوتية والمدرسية إلى عصر اليقين القائم على الذات المفكرة. لم يكن هذا التحول مجرد تغيير في المضامين الفلسفية، بل كان نتاجًا مباشرًا لتطبيق منهج صارم وجذري، هدف من خلاله ديكارت إلى هدم صرح المعرفة القديم وتشييد آخر جديد على أساس لا يتزعزع. إن جوهر الثورة الديكارتية يكمن في العلاقة العضوية بين "المنهج" كأداة إجرائية، والنتائج "الميتافيزيقية والأخلاقية" التي انبثقت عنه.

انطلاقًا مما سبق، تتبلور إشكالية البحث الرئيسية في محاولة فهم وتحليل طبيعة الرابط الحتمي بين المنهج الديكارتي ونتائجه في مبحثي الميتافيزيقا والأخلاق. لا يهدف البحث إلى مجرد عرض تاريخي لتلك الآثار، بل يسعى إلى تفكيك الآلية الفلسفية التي تم من خلالها تحويل قواعد منهجية (الوضوح، التميز، التحليل، التركيب) إلى استنتاجات أنطولوجية (وجودية) جوهرية. وتتفرع عن هذه الإشكالية تساؤلات محورية: كيف أفضى تطبيق الشك المنهجي، كأداة إبستمولوجية، إلى تأسيس "الكوجيتو" كحقيقة ميتافيزيقية أولى، وليس مجرد قضية منطقية؟ ما هي الضرورة المنطقية التي فرضها المنهج الديكارتي وأدت إلى الفصل الحاد بين جوهرين متمايزين (النفس والجسد)، وما هي التبعات المترتبة على هذه الثنائية؟ وكيف يمكن فهم "الأخلاق المؤقتة" الديكارتية، ليس كملحق ثانوي، بل كبنية أخلاقية ضرورية تترتب منطقيًا على أسسه الميتافيزيقية القائمة على سيادة العقل وتحكم الإرادة؟

ينطلق البحث من فرضية مركزية مفادها أن المنهج الديكارتي لم يكن أداة محايدة طبّقها ديكارت على موضوعات فلسفية، بل كان هو "المصفوفة المولّدة التي حددت شكل ومضمون بنائه الميتافيزيقي والأخلاقي. وتقوم هذه الفرضية على أن مبدأ "الوضوح والتميز" كمعيار للحقيقة، قد حتّم بالضرورة الوصول إلى ثنائية العقل والجسد، وجعل من إثبات وجود الله ضمانة عقلية للمعرفة، وهي الأسس التي لا يمكن فهم مشروعه الأخلاقي إلا في ضوئها.

تكمن أهمية هذا البحث في كونه يقدم قراءة تحليلية-نقدية للعلاقة السببية بين المنهج والنسق لدى ديكارت، وهو أمر حيوي لفهم نشأة الحداثة الفلسفية. فمن خلال تفكيك هذه العلاقة، يمكن الكشف عن الجذور العميقة لإشكاليات لا تزال تهيمن على الفكر المعاصر، مثل مشكلة العقل والجسد، وأسس الأخلاق العلمانية، وحدود العقلانية في بناء المعرفة. وبالتالي، يساهم البحث في إضاءة اللحظة التي أصبحت فيها "الذات" هي المبدأ والمنتهى في الفلسفة الغربية. وان سبب اختيارنا لهذا الموضوع هو دافعنا القوي في التعرف على منهج ديكارت واثره على الميتافيزيقا

والاخلاق ، والملاحظ أن ديكارت يقيم المنهج الصحيح للمعرفة اجمالا ، على اساسين يعتبرهما المصدر الموثوق به لاستقاء معارفنا هما ؟ ما تشمل عليه النفس من بذور المعرفة وطاقات العلم، وسفر الكون، أو (كتاب العالم).ويبدو من تصوير ديكارت للفلسفة على النحو المتقدم انه يتخذ من المبادئ العليا والحقائق الميتافيزيقية فيما وراء الطبيعة اساسا البناء فلسفته، وانه يعتمد على العقل اولا وبالذات في منهجه كما سنرى فيما بعد، وكذلك يبدو من حصره منبع المعرفة في المصدرين السابقين انه لم يكن يؤمن بما أودع في بطون الكتب من علوم او دونه السابقون من معارف وساد الاعتداد به والاعتماد عليه من قواعد وقضايا ونظريات. ومن هنا نشا عزمه على بناء جديد ، اخص ما يتصف به الوضح واليقين. وعندما يجرد ديكارت فكره من كافة ضروب المشاغل وبتجرد من الملهيات ويظفر لنفسه براحة مؤكدة يجد من الفراغ الى نفسه ما يمكنه من تفويض آرائه القديمة، على أن ذلك لا يكون بأثبات زيف كل رأي على حدة حتى يثبت أنها كلها زائفة. فذلك امر تقضي فيه الحياة ولا ينال، وإنما يكون ذلك بالامتناع عن التصديق بأي شيء لا يبلغ العلم به الى درجة اليقين التام. إذ يكفي لرفض الاقتناع بها أن يجد في كل واحد منها سببا للشك، ويمضي ديكارت في اثاره الشك حول كل قضية وكل مسالة ، بل وكل موجود باحثا عن هذه النقطة الثابتة او نقطة الانطلاق في اقامة بنائه متدرجا من مرحلة الى اخرى على هيئة حوار مع نفسه أو تأمل فيما يحيط به واستنتاج حكم سرعان ما يرتقي به إلى مرتبة اخرى من الامل .

المبحث الاول : الجذور الفكرية لظهور المنهج وطبيعته (من اليونان إلى ديكارت)

أن المنهج الفكري الذي نتحدث عنه هنا هو المنهج بصورة عامة و موجود منذ القدم ويوجد في كل الفلسفات وكل فيلسوف له منهجه الخاص به الذي من خلاله يوضح فلسفته ويشرحها بكل ما فيها من معاني . وان المنهج بدا مع ظهور الفلسفة وهو موجود في فكر الفلاسفة بصور مختلفة ويتفق الباحثون على أن المنهج ظهر على يد الفلاسفة اليونان امثال : سقراط و افلاطون فكان منهج سقراط (469-339 ق.م) مثلا هو (التوليد والتهكم) وكان من خلاله يطرح الأسئلة ويدعي الجهل لكي يسمع الاجابة ويأخذ بها، وكذلك افلاطون كان منهجه الجدل (الجدل الصاعد والجدل النازل) وهناك بعض الأفكار المنهجية في الأرسطية المتأخرة والرواقية المتأخرة وغير من الفلسفات.[1]

اما في العصور الوسطى فظهرت الفلسفات المسيحية والإسلامية والنزاع بين كل منها وكان الأمل الوحيد هو التوفيق وكان لكل واحدة منهما نظرة عن المنهج ولكن من ناحية لاهوتية لا من ناحية العقل فكان يحاول تبرير او اعطاء مخالطات او نظريات صحيحة تمس دينهم او تبتعد

عن الدين. وفي ذلك الوقت كانت السلطة الأولى بيد الكنيسة والكل خاضع للدين واللاهوت والابتعاد عن العقل . ومن الفلاسفة المسيحيين هو القديس أوغسطين (354-430).[2] والذي منهجه كان يشبه ديكارت في إنه يشك في كل شيء حتى يصل إلى الحقيقة ولكن منهجه الشك في كل شيء الا وجود الله الذي هو خالق كل شيء وذلك بعكس ديكارت الا انه لم يذكر وجود الله ولكنه كان من الفلاسفة العقليين وليس متأثر بافكار الكنيسة مثل اوغسطين وانه شك حتى في الشك نفسه متى يصل إلى الأمور التي لا يمكن الشك فيها وهو الله ، وبالتالي فان ديكارت اختلف عن اوغسطين من خلال الشك انه كائنا يفكر ويشك واعتبر الشك هو الجوهر بالنسبة للمفكر.[3]

ولدينا نموذج اخر من نماذج العصر الوسيط وهو القديس (أنسلم) يتفق مع ديكارت من جهة ويختلف معه من جهة اخرى وكل حسب ما يعتقده اتفقا الاثنين من ناحية منهجهما في الوجود فيقولان الوجود موجود وكل واحد له وجود خاص به فنرى في قول انسلم بأن الوجود موجود يوجد فاعل او بالفعل.[4] ويقول بها ديكارت ايضا ان مع الفعل يوجد العقل او وجود الكمال ويكمن ان الكمال عند ديكارت هو وجود العقل مع وجود الله لكن الكمال عند انسلم هو وجود الله باعتبار هو اكمل الموجودات وجودا ولاشك في وجوده في أي لحظة وهو اختلافات و اتفاقات في العديد من المواضع الفلسفية والدينية.[5]

بعد ذلك في العصر الإسلامي ظهر فلاسفة مسلمين كبار امثال الفارابي وابن اسينا والغزالي وكان لكل منهم منهج فلسفي وديني يسير فيه ويعبر عنه في فلسفته وكان في تلك المؤلفات اشياء ومواضيع موجودة في الفلسفة الحديثة. لكن ليس بنفس المعنى او التطور الذي حدث في هذا العصر ومن هؤلاء لدينا الغزالي فكان لديه منهج الوصول إلى الحقيقة او اليقين قبل كل شيء معرفة الله ومن بعدها تأتي المعارف الاخرى وقال الغزالي بالمعرفة الحدسية وهي المعرفة التي لاتدع مجالا لنشوء الفهم الذي يحصل عليه المرء، وعن طريق الحدس يستطيع ان يتوصل إلى معرفة الله والى اكثر المعارف ونفس المنهج استخدمه ديكارت ايضا وهو الحدس للوصول إلى المعرفة وهو طريق واضح من خلاله يمكن معرفة الله الحقة وهذا المنهج بالنسبة للعقل يمثل اوضح الطرق والحقائق كلها ومن خلال هذا الفارق بين المنهج الغزالي (450-505هـ) وديكارت في معرفة الله هو طريق واحد .[6] ليس الاتفاق فيما بينهما في الأمور الأساسية ومن ناحية الاختلاف بينهما في المبدأ الفلسفي ويتعلق بصورة عرضها وليس بالمعنى الاساسي .[7] وظهر بعد ذلك اتفاق اخر او جزء من منهجية ديكارت في فلسفة ابن سينا جهود كثيرة لمعرفة النفس و الذات التي

كلهما متمثلة عند ديكارت بالكوجيتو او منهجيته لبيان اليقين او الحقيقة وبينا الاثنين أن النفس هي جوهر روحاني غائب عن موضوعات المعرفة وعن الشك أو التيقن فان معرفتها متزعزعة وعرفا الاثنين ذلك من خلال المنهج.[8]

وبعد ذلك التقديم الذي عرضناه لطبيعة المنهج من اليونان إلى ديكارت رغم الاختلاف والاتفاقات الا ان المنهج واحد وهو الوصول إلى الحقيقة أو إلى اليقين ولكن كل بتعبيره الخاص وفلسفته التي كان يتخذها وديانته والظروف المحيطة بها وبالتالي فان المنهجية واضحة وبذلك يعني على أن أي شخصي للوصول إلى غاية او معرفة حقيقية ما عليه أن يضع له منهج يسير عليه وبالتالي يكون قد بدأ بشكل او بصورة صحيحة فينتهي إلى الصواب او المعرفة الكاملة مهما كانت الوسائل التي عمل بها ولكن المهم هو المعرفة الحقيقية هو اليقين كما يسميه ديكارت.

المبحث الثاني : المنهج الديكارتي

1. ماهية المنهج الديكارتي وضرورته:

المنهج : يعني الطريقة الواجب اتباعها في البحوث العقلية والاهتمام بالمنهج والعناية به يقترب ميزة من ميزات القرن السابع عشر ، لان مفكري ذلك العصر كانوا مؤمنين بفائدة المنهج واثره في العلوم وفي الحياة العامة لابناء الانسانية جمعاء .والمنهج عند ديكارت " هو عبارة عن القواعد التي تعين الانسان على زيادة عمله تدريجيا والارتقاء شيئا فشيئا الى اسمى نقطة يستطيع بلوغها " [9] ويرى ديكارت ان البحث في المنهج هو اهم المشكلات واولها بالعناية في مهمة الفيلسوف ، واراد ان يجعل بداية اصلاحه الفكري الظفر بطريقة للحصول على المعرفة الحقيقية، بواسطة ذلك النور الفطري المورث فينا جميعا وهو نور العقل . ولم يرضى ديكارت عن منهج الفلسفة الكلامية ، فلسفة المدرسين ذلك المنهج الذي كان مايزال قائما في عصره ، وكان قد تلقنه ايام طلبة العلم في مدرسة لافليش . وهو عبارة عن محاولة حل المشكلات الفلسفية او العلمية بذكر طائفة من اقوال المؤلفين السابقين ، سواء كانوا معروفين او غير معروفين ، بدلا من الاقدام على معالجة المشاكل نفسها، ومثل هذا المنهج يتطلب اطلاعا كثيرا ، وقسطا كبيرا من الحذق والمهارة للملاءمة بين الاراء اليونانية والمصادر المتنوعة ، ولكن مثل ذلك المنهج ليس من شأنه ان يستحث الناس على حرية الفكر والاستقلال في البحث . ولاحظ ديكارت بادئ الامر ما كان سائدا في زمانه من اختلاف وجهات النظر وفوضى الآراء ، سواء في الفلسفة او في العلوم او في الدين ، حتى اننا لأنكاد نجد شيئا هو من البداهة واليقين بحيث لا يدع مجالا للمناقشة والجدل .[10]

ومن المؤكد ان فوضى الفلاسفة واضطراب العلماء وتنازع اصحاب الدين ، مصدره انهم جميعا يسيرون في مباحثهم على غير هدى ويتخبطون فيها خبط العميان ، وكان اكبر اعتمادهم في بلوغ مراميهم على مؤاتاة المصادفات والحظوظ ، ودن ان يكون لهم في ذلك خطة مرسومة او منهج معين .وكما ان حب الاستطلاع عند بعض الناس قد يسوقهم احيانا الى الوقوع في مازق لا مخرج منها ، فكذلك شأن من ينكبون على الدراسات من غير نظام ، لن نكون ثمرة جهودهم ومتاعبهم الا ان يفقدوا نور الفطرة والا ان يصابوا بعمى البصيرة ، ذلك ان الدراسات التي تسير من غير ترتيب ونظام ، وان التأملات الغامضة والخواصر المبهمة تحجب انوار الفطرة وتطمس بصيرة الذهنة ومن اعتاد ان يسير هكذا في الظلام ضعف بصيرة ضعفا يصبح من العسير عليه ان يتحمل الضوء الساطع . وهذا هو ما تؤديه التجربة ايضا ، ونلاحظ في اغلب الاحيان ان من لم يشتغلوا بالدراسات قد يحكمون على مايعرض لهم احكاما اصوب وامتن واوضح بكثير من احكام الذين اكثروا التردد على معاهد التعليم . واول ما يلزم من ادوات التفلسف الشعور بضرورة المنهج ، ثم ايجاد ذلك المنهج بالفعل ثم تطبيقه على النظر والعمل عن شعور ووعي وروية.[11] ويقول ديكارت "انا اعني بالمنهج قواعد مؤكدة بسيطة اذا رعاها الانسان مراعاة دقيقة كان مأمن من ان يحسب صوابا لما هو خطأ و استطاع دون أن ستنفذ قواه في جهود ضائعة. بل العكس مع ازدياد علمه زيادة مطرودة وان يصل بذهنه إلى اليقين في جميع ما يستطيع معرفته"[12]

ويشير ديكارت أن المعرفة التي تأتي من عدة مناهج تكون خاطئة ومشتتة فيجب أن يكون هنالك منهج واحد عند جميع الناس وبذلك وان العقل السليم هو اعدل الاشياء ولكن كل واحد يعرف كيف يتعامل معه وبذلك يعد الذهن البشري واحد والعقل واحد وان يكون هنالك منهج واحد للوصول إلى علم يقيني حق في مختلف الأمور ويتخذ ذلك المنهج عند ديكارت في المنهج الرياضي الذي وجده أنموذجا للبداهة و اليقين .[13]

2. المنهج الرياضي:

هو منهج طبيعي للفكر يهدينا اليه المشتغلين في العلوم الرياضية و هو سر تفوقها ونجاحها وعلى غير ذلك بساطة وسهولة موضوعاتها. وليس مقصد ديكارت من الرياضيات هو تعلمها لذاتها وانما تعويد الذهن على مناهج وطرائق تكون اكثر اهمية وضرورة والرياضيات عند ديكارت هي: المنهج و الجميع يعرفون أن المعرفة التي تضع الفكر وتشفي عليله هي المعرفة الرياضية

ويقول ديكارت: " لقد اعجبت بالرياضيات اشد الاعجاب لان البراهين التي تصطنعها يقينية و تعتمد على اشياء بينة بذاتها" .[14]

واراد ان تكون الرياضيات مركزة على البداهة والوضوح والتميز وان تجمع الناس على خط واحد في علما ما وان يكون الرياضيات يمدنا بالعون وجوهرا اساسيا في بناء فلسفته او العلوم الأخرى كما يراه هو ومن كل ذلك أن ديكارت لم يقصد منهجا يقتصر تطبيقه على علم واحد بل منهجا يطبق على جميع العلوم و دليل ذلك هو مؤلفاته الشهيرة (المقال في المنهج لأحكام قيادة العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم) .[15]

وبعد ان انتهج ديكارت المنهج الرياضي واخذه الأساس بفلسفته و اساس الوصول إلى المعرفة الحقيقية أو اليقين ولكي يكون منهجا علميا وصحيحا للبحث وكاملا يسير على فعلين اساسيين يعبر عنهما ديكارت فيقول : "جميع الأفعال الذهنية التي نستطيع بها ان نصل إلى معرفة الأشياء دون أن نخشى الزلل عبارة عن فعلين او عملين الحدس والاستنتاج" .[16]

اولا : الحدس : هو الادراك العقلي المباشر الذي يطلع الذهن على بعض البديهيات التي لا سبيل إلى نكرانها. ويكون الحدس بصورة مباشرة ويكون في زمن واحد من الحقائق خلل الحدس يمكن كل واحد منا أن يعرف انه موجود وانه بفكر من خلال الحدس يمكن معرفة وادراك الكيفيات يعني (الطبائع البسيطة) وهي على المعاني - فقط ويتناول ايضا حقائق كثيرة وبذلك فان ديكارت يوضح "الحدس من ادراك ثلاثة اشياء هي الطبائع البسيطة او الحقائق التي لا تقبل الشك ، والعلاقات التي تربط الحقائق بعضها البعض وبذلك سماها ديكارت نورا طبيعيا او غريزة عقلية يعني تكتسب بها معارف كافية للبرهان على قضايا كثيرة".[17]

الحدس بالنسبة لما يلاحظه ديكارت هو الرؤية العقلية المباشرة التي يدرك بها الذهن بعض الحقائق التي تذعن لها النفس وتوقن بها يقينا لاسبيل الى دفعة . الحدس اذن نظرة عقلية بلغت من الوضوح والتمييز ان زال معها كل شك . ذلك الفعل بحسب مفهوم ديكارت عقلي ، كونه لا يتعلق بالحواس ولا بالخيال ، وانما يختص بالذهن ، بل الذهن الخالص الصافي ، ويوضح ديكارت كل ذلك في قوله " ولاقصد بالحدس شهادة الحواس وهي متغيرة ولا الحكم الخداع حكم الخيال وانما اقصد به الفكرة المثبتة التي تقوم في ذهن خالص وتصدر عن نور العقل وحده"[18] .فالحدس الديكارتي هو عمل عقلي يدرك به الذهن فكرة ما ، من تصور او حلم او استدلال ، بفهمها بتمامها في زمان واحد لا على التعاقب ، ويوازي ديكارت بين الحدس والاستنتاج الذي

لايتم بتمامه في زمان واحد ، ولكنه يقتضي حركة من حركات الذهن اذ يستنتج شيء من شيئا اخر .[19]

وبالحدس يستطيع كل واحد ان يعلم انه موجود بالضرورة لانه يفكر وان المثلث شكل محدود بثلاثة اضلاع . ويعلم حقائق اخرى كثيرة قد تفوتنا معرفتها لا نلقي بالنا اليها لبساطتها ، والحقائق التي من هذا القبيل نستطيع ان نصل اليها بفضل ما لها من بداهه ذاتية ، ولذلك يسمي ديكارت (الحدس) نورا فطريا او غريزة عقلية نكسب بها من المعارف فوق مانظن معارف كافية في اثبات قضايا عديدة .[20]

والحدس عند ديكارت لايقتصر على المعاني والافكار بل يتناول حقائق لا قبل لنا بالشك فيها، كما يتناول الطبائع البسيطة وهي الخواص الطبيعية المجردة التي لبساطتها تدرك بالذهن ادراكا مباشرا ويمكن ان نستخلص منها جميع الطبائع الاخرى ، مثال ذلك الوجود والوحدة والامتداد والحركة والشكل والزمان والمكان ، وكذلك افعال المعرفة والشك ، والارادة . والطبائع البسيطة طبائع (قد بلغت معرفتها من الوضوح والتميز مبلغا يمنع الذهن من تقسيمها الى احدى اكبر تميزا منها ومعرفتنا بالطبائع البسيطة معصومة من الخطأ لان الفكرة في ذاتها دائما صحيحة ، والخطأ لا يكون بالفعل الذي يرى الذهن به ، بل في الفعل الذي به يحكم . ذلك ان الحكم عند ديكارت لا يرجع الى العقل وحده بل الى الارادة والحكم حر ، ومن اجل هذا كان الخطأ منسوب الى الانسان الذي يستطيع ان يستعمل حريته استعمالا سيئا ، كما لو الف بين افكاره لا ارتباط بينها في الحقيقة والواقع .[21]

ثانيا : الاستنتاج : يقول ديكارت " ان علم هو معرفة يقينية بديهية ، والانسان يشك في كثير من الاشياء ، لايكون اكثر علماً من الذي يفكر فيه "[22] ان الوسيلة الثانية لبلوغ اليقين الرياضي هي الاستنباط وهي قوة نفهم بها حقيقة من الحقائق نتيجة حقيقة اخرى ابسط منها وهو فعل ذهني بواسطة نستخلص من شيء لنا به معرفة يقينية نتائج تلزم عنها او عملية تنقل من الواحد الى الاخر ومن الحد الى الحد الذي يليه او الذي يلزم عنه مباشرة وضرورة ، ثم من الثاني الى الثالث وهكذا .

ويلاحظ ان الاستنباط الديكارتي يختلف من القياس في منطق ارسطو ومنطق القرون الوسطى . ذلك لان القياس القديم رابطة بين افكار في حين ان الاستنباط رابطة بين حقائق . ثم ان علاقة الحدود الثلاثة القياس خاضعة لقواعد معقدة تطبق بطريقة الية لمعرفة الاقيسة المنتجة وغير المنتجة ، حين ان الاستنباط انما يعرف بواسطة الحدس معرفة هي معرفة البداهة

بحيث ان اقل الاذهان اهليه للاستدلال لا يمكن ان سيء القياس به . ويمتاز القياس بعلاقات ثابتة سواء ادركت او لم تدرك لكن الاستنباط حركة فكرية موصولة ، حركة فكرة يرى الاشياء واحد بعد الاخر رؤية بديهية . واذن فلا مكان في الاستنباط الديكارتي الا لقضايا يقينية ، في حين اننا نجد القياس الارسطاطالي يفسح المجال لقضايا احتمالية وظيفة كما في الاقيسة الجدلية والخطابية . تكلم البعض عن الدور الهام الذي يقوم به الاستنباط في منهج ديكارت ولكن يحب ان يلاحظ ان الاستنباط ليس مع ذلك بأوثق من الحدس اذ لا بد من نقطة يبدأ بها الاستنباط والحدس هو بمثابة تلك النقطة ، بل الحقيقة ان الاستنباط اقل متانة من الحدس لان كل استنباط يحتاج الى زمن ، واذن فهو محتاج الى استعمال تلك الملكة التي كثير ماتخون الانسان ، وهي الذاكرة .[23]

ويقين الحدس ان قبل كل شيء من انه عقلي وهو مشارك للاستنباط والتميز وان يمتنع على اي ذهن ان يكون محتاجا الى تعلمه وامتنع عليه ان سيء القيام به ،حيث نرى قول ديكارت "التصور الذي يولد في نفس سليمة منتبه عن مجرد الانوار العقلية "[24] وبالتالي فان الحدس والاستنتاج يرجعان إلى فعل واحد و الواحد يعتمد على الاخر وكل ذهن قادر على القيام بها بالفطرة من غير تعلم وبذلك طبق المقولة : (العقل أعدل الاشياء بين الناس).[25]

3. قواعد المنهج الديكارتي

لم يكتفي ديكارت ببيان المنهج وانما وضع له قواعد وانظمة عديدة لكي تشبع غريزته المعرفية وتعطيه اكثر او اشد يقيناً في الأمر ودقه بصورة كاملة واكتفي بوضع اربع قواعد اساسية الأولى تخص الحدس و الثلاث الأخرى متعلقة بالاستنتاج والاستنباط وهذه القواعد هي :

١- **قاعدة الشك واليقين**: يشير ديكارت بقوله " الا اقبل شيئا قط على انه حق الا اذا عرف يقينيا انه كذلك ، بمعنى ان اتجنب بعناية التهور السبق الى الحكم قبل النظر . ولا ادخل في احكامي الا ما يمثل امام عقلي في وضوح وتميز ، بحيث لا يكون لدي أي مجال لوضعه موضع الشك "[26] .وهو يريد بالتهور الحكم قبل ان يصل العقل الى يقين كامل ، ويريد بالحكم قبل النظر لا اخذ بالأفكار خاطئة اعتنقها منذ طفولته او اخذها عن السلف بالنقل عن غير نقد.[27]

وبهذه القاعدة اجمع جلاء الافكار ووضوحها مقياس الصواب والخطأ . وانتفت السلطة الكنيسة والكتب القديمة مصدرا للحقيقة وامتنع الاخذ بالفكرة لمجرد ان اكثر الناس يرغبون بها او ان المعروفين من المفكرين قد اعتنقوها ، او لان السلطات الدينية قد اعتمدتها في القاعدة

اذن محاولة لابعاد العقل عن التأثر بالاخطاء التي اسماها بيكون بالاوثان او الاوهام هي التي تؤلف الجانب السلبي من منهجه التجريبي .[28]

وتعد هذه القاعدة بمثابة ثورة على الفلسفة القديمة والوسيطة وعدم الاعتداد بالأحكام الا بعد التأكد منها الا اذا كانت واضحة و مميزة وهذا هو مقياس الحقيقة التي يصرف عليها العقل والاحساس معا بذلك الوقت الصحيح حقيقة صادقة وواضحة تستطيع أن نسميها ولا نشك فيها والبداهة التي بعينها ديكارت ليست هي بداهة الأشياء الحسية و انما هي بداهة المعاني العقلية ، اي التي لا تعتمد على عقلنا ومعرفتنا ويريد به معيار اليقين الذي يكون واضحا ومتميزا.[29]

يعني في الأفكار المتميزة أو الأفكار الواضحة ويوضح ديكارت في هذه القاعدة وجود عيوب او امرين لانهما يوقعان في الأوهام الأمرين هما : الاول هو التعجل في الحكم قبل أن يصل الى البداهة عامة. والثاني هو التشبث بالأحكام السابقة يعني التي تلقيناها من دون تفكير وروية وبذلك يقول ديكارت "لا أتلقى على الاطلاق شيئا على انه حق ما لم أثبت بالبداهة أنه كذلك ولا ادخل في احكامي الا ما يتمثل لعقلي بوضوح تميز ولا يمكن الشك فيه".[30]

٢-**قاعدة التحليل** : في هذه القاعدة يقول ديكارت " نرتب وننظم الاشياء التي ينبغي توجيه العقل اليها لأستكشاف بعض الحقائق ونحن نتبع هذا المنهج خطوة خطوة اذا حولنا بالتدريج القضايا الغامضة المبهمة الى قضايا ابسط ، واذا بدأنا من الادراك البديهي لأبسط الاشياء كلها فأننا نجتهد أن نرقى بنفس الدرجات الى معرفة الاشياء "[31] وبها قدر ديكارت وجوب تقسيم المشكلة التي نعرض بحثها ما امكننا ذلك ، أي الى اجزاء بسيطة على قدر ما تدعو الحاجة الى حلها على خير الوجوه .وغاية التحليل عند ديكارت رد المركب الى البسيط والمعقد الى السهل حتى يبدأ العقل تفكيره في المعضلة التي يدرسها مطمئنا الى وضوح الفكرة التي يبدا بها حتى لا يخطأ فيها ، وبذلك يأمن الزلل منذ بداية تفكيره ، وهو يدرك هذا البسيط بالحدس الذي يدرك الافكار البسيطة والحقائق الثابتة . وسينتهي به هذا الى ان يجعل العلم بالمعقولات سابقا على العلم بالمحسوسات ، لان الافكار اوضح من الاشياء ، والمبادئ اوضح من كثرة الانواع ، ومن هنا سبقت الميتافيزيقا في مذهبه علم الطبيعة.[32]

٣-**قاعدة التركيب:** وهي مكملة للقاعدة السابقة وفيها يقول "قيادة الافكار بنظام بحيث يبدا الباحث بأبسطها واسهلها معرفة ، كما يتدرج رويدا رويدا حتى يصل الى معرفة اكثر تركيبا ، بل ان يفرض ترتيبا بين الامور التي لا يسبق بعضها الاخر بالطبع "[33] . وقد قيل ان هذه القاعدة اساس المنهج الديكارتي واظهرها اثرا عند التطبيق ، لان التدرج الذي اشار اليه هو الذي يميز

المعادلات الرياضية التي لايخطأ اهلها في حلها ومعنى هذا ان ديكارت قد طبق بهذه القاعدة المنهج الرياضي على كل العلوم وديكارت نفسه يصرح بان العالم لايلزم هذه القاعدة عندما يعرض للبحث ما ، يشبه رجلا يرقي منزلا من اسفله الى اعلاه برتبة واحدة مهملا السلم الذي اقيم لهذه الغاية .[34]

4- **قاعدة الاحصاء او الاستقراء**:وهي عبارة عن مراجعة او مسح لكل الامور التي تتصل بالمشكلة موضوعة البحث وهي كثيرة الدقة والشمول ليكون الاستنتاج صحيحا ولا تغفل عن شيء.[35] وان من خلال هذه القاعدة نرجع إلى كل القواعد السابقة لكي يكون الاحصاء تاما بجميع اجزائه وان اهمال جز يفسد النتيجة والاحصاء يجعلنا نتحقق من العقل في انه لم ينسى شيئا سهوا او خطأ ويؤكد ديكارت ذلك بقوله: (أن اقوم في جميع الأحوال بإحصاءاأت تامة و مراجعات عامة تجعلني على ثقة من اني لم اغفل شيئا).[36]

أي ان يقوم الباحث في كل الحالات بإحصاءات كاملة ومراجعات شاملة تجعله على يقين من انه لايغفل شيئا ، أي انه يوجب على الباحث ان يمر بحركة فكرية متصلة على كل ما يتصل بموضوع بحثه ويراجع الصلات التي تقوم بين حلقات السلسلة الاستدلالات وديكارت في هذه القاعدة يعيد تاكيد قادة بيكن على ضرورة التأني وعدم التسرع في البحث العلمي . وانطلاقًا من هذه القاعدة، سعى ديكارت إلى تجاوز القصور الكامن في منطق أرسطو القياسي، وهو المسار الذي طوّره ليبنتز لاحقًا، ثم واصل رياضيو القرن الماضي، وفي مقدمتهم جون بول، إرساء أسسه عبر تأسيس المنطق الرياضي الحديث.[37]

أن هذه القواعد الأربعة التي وضعها ديكارت في منهجه والذي من خلالها ا اراد ان يصل إلى حقيقة الامور و بيان كل ما فيها من غموض والوصول إلى معرفة تامة بكل أجزائها وتراكيبها وقد تكون جزءا صغيرا من فلسفته الا انها تعد عملا عظيما يوضح امور كثيرة والواحدة تكمل الاخرى في كل ما يحيطها ويعبر ديكارت عن هذه القواعد الأربعة في مقولة شاملة هي:- "اذا ارادت ان تصيب الحقيقة فاطلب البداهة، واذا اردت ان تصيب البداهة فاطلب في كل مسالة ابسط الأمور اذن قسم وحلل واذا حصلت على حقائق بسيطة فاستخدمها لتصيب الحقائق المركبة والمشكوك فيها أذن الف وركب واخيرا افحص تأليفاتك وتحليلاتك لتتحقق من انها مضبوطة وانها تامة".[38]

4. المنهج الشكي عند ديكارت

داب الفلاسفة والعلماء على اشعال نار الاختلافات في الافكار والآراء مع رجال الدين ومن ينافح عن افكارهم الدينية في الامور العقلانية الكبرى وذلك في العصر الذي عاش فيه ديكارت والفعل ظهر عجز هؤلاء عن تقديم الحلول التي تركن اليها العقول وتطمئن اليها النفوس التواقة الى سبر اعماق الحقيقة الفاعلة في الوجود والموجودات .واذ كان الحكيم قد رفض ان ينشد الحق الذي لأخلاف فيه وان يفتش عن اليقين الذي يستطيع ان يقيم عليه صروح العلم ، فقد قدر ان يرفض جميع المذاهب القائمة ، وان بعض الطرف عن الماضي ، وان يشك في كل ما تعلمه من قبل ، وان يمضي في هذا الى ابعد حدوده ، مصمما على ان يبدأ النظر كله من جديد ، لعله يجد اصولا اخرى يقينية تصلح اساسا لكل معرفة ممكنة.[39]

ونلاحظ ديكارت في كتابه التأملات حيث يقول " ينبغي لنا ، لكي نقيم العلوم على قواعد ثابتة ان نرفض كل آرائنا القديمة مرة في حياتنا ... ولهذا قدرت ان احرر نفسي ، جديا مرة في حياتي ، من جميع الآراء التي امنت بها قبلا ، وان ابتدأ الاشياء من اسس جديدة ، اذا كنت اريد ان اقيم في العلوم قواعد وطيدة ثابتة ، مستقرة . غير ان المشروع بدأ لي ضخما للغاية فتريثت حتى ادرك سنا لا سن اخرى ، بعدها امل ان اكون فيها اصلح نضجا لتنفيذه . من اجل هذا ارجأته مدة طويلة . اما اليوم فقد غدوت اعتقد انني اخطأ ، اذ ترددت ايضا دون ان اعمل في ما ينبغي لي من العمل " .[40]

استعاد ديكارت شهادة الحواس لأنها تخدعنا احيانا ، ومن الفطنة ان لاتأمن امنا تاما لمن خدعنا مرة ، ثم قدر كالغزالي . باننا نعتقد في النوم امورا ونتخيل احوالا ونحسب لها ثباتا واستقرار فنعلم ان ما رأيناه اثناء النوم كان حلما . واذن فما المانع من ان تكون تصوراتنا في الفطنة كتصوراتنا في النوم كلها خيالات لا اصل لها ، واذن فقد اتضح له انه ليس هناك امارات يقينية يمكن ان تميز بها اليقظة من النوم في وضوح وجلاء.[41]

وفي هذه المبادئ وهي الحواس التي لا يمكن ان يوثق بها لأنها خداعة كما يقول ديكارت ، حيث يقول ديكارت في التأملات : "كل ما تلقينه حتى الان على انه اصدق الامور ، واوثقها ، قد اكتسبته بالحواس ، او عن طريق الحواس غير اني وجدت الحواس خداعة ، في بعض الاوقات ومن الحكمة الا نطمئن ابدا كل الاطمئنان الى من يخدعنا ، ولو مرة واحدة . يبدو لنا انه يستحيل على حواسنا ان تخدعنا في بعض الامور . ولئن كانت الحواس تخدعنا ، بعض الاحيان ، في اشياء صغيرة جدا وبعيدة عن متناولنا ، فهناك اشياء كثيرة اخرى لا يعقل ان نشك فيها ، وان كنا

نعرفها بطريق الحواس . مثال ذلك . ان البس عباءة المنزل واجلس هنا قرب النار وقد مسكت بيدي تلك الورقة ،واشياء اخرى من هذا القبيل . كيف استطيع ان انكر هاتين اليدين وهما برئ ، وذلك الجسم وهو جسمي ، اللهم الا اذا اصبحت كبعض المخبولين ، الذين اختلت اذهانهم وغشى عليها بالابخرة السوداء الصاعدة من الصفراء . هؤلاء لاينفكون يؤكدون انهم ملوك ، في حين انهم فقراء جدا . هؤلاء مجانين ولن اكون اقل شططا منهم اذا نسجت على منوالهم ".[42]

ثم استبعد ديكارت شهادة العقل نفسه لان بعض الناس قد يخطؤون في الاستدلال ولو في ابسط قضايا الهندسة وزاد على ما تقدم فافترض فرضا لم يبق اليه ، فقال ما معناه في التأملات ربما كان هناك شيطان ماكر مخادع يعبث بعقلي ، فيريني الباطل حقا والحق باطلا ، ويجعلني على الرغم مما قد يكون لدي من يقين نفسي . لكنني ان احمي نفسي من ذلك الشيطان اذا صممت منذ الان على رفض أي قضية قد يخالجني الشك في امكان وقوع الخطأ فيها . ينبغي ان تمتد رحاب الشك الى جميع المجالات ماعدا مجال الاخلاق والحياة العلمية لان افعال الحياة لا تحتمل عادة أي تأخير ، يجب اذن ان اشك في وجود العالم الخارجي وفي حقيقة الاشياء المحيطة بي ، وفي وجود امثالي من الناس وفي وجود أي حقيقة متميزة ، بل يجب ان اشك في قيمة ذهني ، واذن فيدخل في نطاق الشك الاحكام التي تبدو لعقلي اوضح الاحكام واوفرها بداهة لان من الممكن كما قلنا ان شيطانا خبيثا بي ويطيب له ان يوقعني في الظلال.[43]

فماذا لدي اذن من ضمان؟ ان شيئا واحدا يلبث قائما وفيه منجاة من الشك وهو الفكر، انا افكر ، وانا واثق انني افكر، وحتى لو شككت في انني افكر فمثل هذا الشك يقتضي ان افكر ايضا وبعبارة اخرى اذا صممت ان اشك في كل شيء ، واخليت ذهني من كل معتقد وتوقفت عن كل حكم ، بقى امامي مع ذلك مؤكد وهو انني مهما اشك ومهما افكر فلست بمستطيع ان انكر انني حين اشك وانني في لحظة تفكيري ، بل في لحظة خطئي في تفكيري لابد ان اكون (انا افكر واذن فانا كائن).[44]

وهنا يمكن القول ان ديكارت يستطيع ان يشك في كل شيء ماعدا شكه هو نفسه، والشك تفكير ، والتفكير وجود ومن ثم (انا افكر واذن انا موجود) وتلك حقيقة مؤكدة تظم الوجود والفكر معا، ولا سبيل للروح الخبيث ان يخدعه عنها ، وهو يتخذها مبدأ اولا للفلسفة ومعيارا لكل حقيقة، فكل فكرة تعرف بمثل هذا الوضوح هي حقيقة ، وهو يدرج تحت هذا الكوجيتو كل ما يحدث فينا بحيث ندركه حالا بأنفسنا ويعني به انا احب وانا اكره وانا اريد وانا ارفض، بالإضافة الى انا اشك، ومادام انه يتعرض لكل تلك الخبرات فهو موجود ولعل أوغسطين

استخدم الفكر استخدام ديكارت، ليدلل به على الوجود الذاتي، لكن منطلق أوغسطين يختلف عن منطلق ديكارت وأوغسطين يرد على الشكاك ليشعرهم بيقين الوجود والفكر، فيقول انه اذ كان يشك فهو يحيا، ولكنه يستدرك بان هناك امورا لا يمكن ان يتطرق اليها الشك ، ويرونها لا يمكن الشك، فالشك المطلق يستحيل وديكارت يشك في جهى، واذن نحو النفس وجسم والنفس جوهر مفكر، والجسم جوهر ممتد، والنفس جوهر بسيط والحس جوهر قابل للقسمة[45] والشك عند ديكارت على الرغم مما يمكن ان يوجهه اليه من انتقادات شك نافع واذا استخدم في حيطة وتبصر كان منهجا مشروعا لا غبار عليه ، بل الاولى ان يقال انه منهج مفروض على كل فرد جاد . لأنه اذا وجب ان لانقبل الا ما تبينت صحته بالبداهة فقد اتضح ان اول واجبات الفيلسوف هو ان يشرع في فحص افكاره وآرائه ووسائله في المعرفة . لكي يتبين قيمتها ومسوغاته[46]

المبحث الثالث: علاقة المنهج بالميتافيزيقا:

أن الميتافيزيقيا عند ديكارت لها علاقة بالفلسفة، فهي جزء من تلك الفلسفة وبما ان الفلسفة شاملة فان الميتافيزيقيا كذلك وهي جزء من المعرفة البشرية التي غيرت مجراها و تشمل الميتافيزيقيا في دراسته عدة جوانب منها صفات الله والروحانية وعن طبيعة الأرض وجمع الأشياء التي توجد فيها كالهواء والماء والنار ولكل واحدة من هذه المعاني الميتافيزيقيا لها منهج خاص عليه لمعرفته بالشكل المطلوب او الصحيح والفلسفة عند ديكارت تبدأ بالميتافيزيقا والميتافيزيقيا عنده بمثابة الأصل في كل تلك العلوم الفلسفية وعبر ديكارت بقوله: (الفلسفة كشجرة جذورها الميتافيزيقيا وجذعها الفيزيقيا و الفروع التي تأتي من ذلك الجذع هي سائر العلوم).[47]

وبذلك كانت هي اقصى واعلى مرتبة من مراتب الحكمة جعلها ديكارت مدخلا إلى غيرها من العلوم وجعلها اساس الفلسفة لا القمة ويعني ذلك أن الفلسفة اصبحت عند ديكارت ليست هي الارتفاع من العالم المحسوس إلى العالم المعقول، وانما اصبحت عبارة عن تفسير الكون بواسطة المبادئ الأولى والأصول العامة التي تكلفها لنا الميتافيزيقيا وتعد دعامة الفلسفة عنده هي الفكر يعني ادراك الموجود الكامل هو الله منبع كل وجود و الضمان لكل حقيقة.[48]

وكل ذلك يعني اذا وضعنا الميتافيزيقيا استطعنا أن نستنبط منها كل المبادئ، مثل انه هو خالق كل ما في العالم وهو مصدر كل حقيقة وتعتبر بذلك الميتافيزيقا الديكارتية ذات العلاقة التامة بالفلسفة والتي تهتم بالذات التي تعرف وتقرر الوجود اكثر مما تهتم بالموضوع الذي يمكن

أن يعرف او يكون موجودا او الميتافيزيقيا عند ديكارت هي اشد العلوم يقينية والذي يضفي على الميتافيزيقيا يقينها وليس طبيعة موضوعها بل الطريق الذي يسلكه الذهن في الوصول اليها . وبالتالي فالميتافيزيقيا عند ديكارت علم دقيق يمكن اثبات قضاياه الفلسفية بيقين شبيه باليقين الرياضي يعني أن تبرهن عليها ببراهين دقيقة وهذه البراهين الميتافيزيقية اكثر يقينا من البراهين الرياضية وذلك لان الميتافيزيقيا من بين العلوم الإنسانية الخالصة اكثرها امكانا للبرهنة العقلية ويضاف إلى كل ذلك أن الميتافيزيقيا يمكن أن يعقلها جميع من يهتمون ببراهينها اهتماما كافيا وينظرون في ادلتها باذهان قد تجردت عن الحواس.[49]

ومن كل ما سبق شرحه عن الفلسفة والمنهج الديكارتي. هو يريد ان يصل إلى اليقين يعني من حكم اول إلى احكام يقينة ثابتة وهنا تبين مدى الاتصال والعلاقة بين المنهج و الفلسفة و علاقتهما بالميتافيزيقيا عند ديكارت واراد الوصول إلى يقين حقيقي وثابت وذلك وحده في الميتافيزيقيا الإلهية واراد من هذه الميتافيزيقيا أن يصل يقين اولا وجود النفس ثم وجود الله ثم وجود العالم و هنا ايضا يكون المنهج السبيل لمعرفة كل هذه الاشياء بكل دقة كما كان يسعى اليها بديكارت في كل مؤلفاته التي كتب فيها خصوصا التأملات التي نجد فيها سعيه واثباته و ادلته وبراهينه العقلية والحسية.[50]

وديكارت من خلال الميتافيزيقيا يتوصل إلى براهين عديدة يحاول اثباتها وهو عكس باقي الفلاسفة فالكل يبدأ من العالم لأثبات الله انما هو يبدأ بالنفس وبالله لأثبات العالم و ذلك من خلال هذه الأدلة وهي:

1- وجود النفس: ان ديكارت بعد أن جعل الفلسفة الأولى الأساس الأول للفلسفة وجزء من شكه فاخذ بعد أن شك في كل شيء وجد قاعدة ثابتة في اثبات النفس وهو (الكوجيتو) والذي استخدمه كدليل اصطلاحي لأثبات النفس والذات في كل افعال الفكر فبالتالي هي الخطوة الأولى و الايجابية التي خرج بها ديكارت من شكوكه للوصول إلى اليقين الثابت.[51] فكوني اشك يفيد اني افكر وكوني افكر يفيد ثبوت انيتي وهذه الحقيقة ندركها بلمحة واحدة من لمحات الفكر : فهي (حدس) ولسيت (قياسا) و لا استدلالا. وقد نحتاج للتعبير عن هذا الحدس، الى كلمات كثيرة متعاقبة ، ولكنه على كل حال حدس اولى واحد حيث يقول ديكارت : (فانني في شكي هذا مدرك كينونتي ، وكينونتي متضمنة في فكري، وفكري حاضر بنفسه حضورا مباشراً ؛ ولو فرضنا ان (شيطاناً خبيثاً) يضلني في كل شيء فهو لا يستطيع ان يمنعني من التوقف عن التصديق ، ولا أن يمنعني من اليقين بان ذاتي موجودة حين افكر.[52] ولكن ماذا في (الكوجيتو) يضمن لي انني اقول

الحق ؟ لاشي البتة . . الا انني ارى في وضوح قوي انه لكي افكر يجب ان اكون موجوداً فانا اذن استطيع ان اتخذ لنفسي منذ الآن قاعدة عامة ، وهي ان الاشياء التي ندركها ادراكا واضحا جدا ومتميزا جدا كلها حقيقية) قال ديكارت: (ولما انتهيت الى ان هذه الحقيقة : انا افكر واذن فانا موجود، هي من الرسوخ بحيث لا يستطيع اللاأدرايون زعزعتها مهما يكن من فروضهم من شطط، حكمت بانني استطيع مطمئنا ان اتخذها اصلا للفلسفة التي كنت اطلبها .[53]

ها هو ذا من فرط الشر يخرج الخير، ومن ظلام الشك ينبلج نور اليقين ، واننا لانستطيع ان نفترض اننا غير موجودين حين نشك في جميع الاشياء ان الكوجيتو في الترتيب المنطقي هو الكشف الاول من كشوف ديكارت الكبرى. واننا بالكوجيتو نلمس الحقيقة الواقعة: ننتقل من المنطق ، وهو علم صور الفكر ، الى الميتافيزيقيا، وهي علم الوجود ولدينا في الكوجيتو معرفة مباشرة حدسية لوجودنا، معرفة لطبيعة بسيطة وهي انيتنا وذاتنا المفكرة . واذن فما الوجود الذي ادركه حين ادرك اني موجود ؟ ليس هو وجود جسمي، بل هو وجود فكري ، فانا اعلم نفسي الان موجودا مفكرا ، ولا اعلم بعد اذا كنت شيئا اخر غير هذا الموجود المفكر فانا مفكر بمعنى اني موجود يتعقل ويشك ويثبت وينفي ويريد ولايريد ويتخيل ويحسن ايضا فكل هذه الظواهر النفسية تفيد الفكر لانها تشترك جميعاً في اننا ندركها مباشرة بانفسنا ، انا موجود مفكر ، وانا اجهل في هذه اللحظة اذا كان هنالك عالم خارجي فكري ، وكل ما اعلم الآن يقينا هو ان اثبات الذات المفكرة اصبح حقيقة لا ينالها الشك،[54] تلك اذن هي الواقعة الاصلية البديهية التي لاترد ولا تدفع والتي تبقى بمنجاة من الشك مهما يمتد، والتي سيقام عليها بناء الفلسفة المستقبلية : انا افكر واذن انا موجود انا شئ مفكر Res cogitans وانا كذلك بالطبيعة وبالماهية، وانا لا استطيع ان اكف عن التفكير دون ان اكف عن الوجود والواقع انني افكر دائما وافكر وانا طفل صغير وافكر اثناء النوم وفي حال الغيبوبة عن الوعي والشعور ، وكل مافي الامر انني افكر اذ ذاك فكرا مبهما غامضا مولفا من احاسيس (صم). ومن الواضح ان لفظ (الفكر) بنطلق كما رأينا على ظاهرة نفسية كثيرة ولا يقتصر على الفهم والتعقل اللذين انما يوجدان في حال تمام الفكر وكماله.[55] والفكر متميز عن البدن الخاص وعن الاجسام عموماً بل ان وجود الفكر اشد وثوقا وثبوتا من وجود الجسم فاني اعرف الفكر بالفكر نفسه اما الاجسام فلست بمستطيع قط ادراكها الا في الفكر وبالفكر فمعرفتي بالنفس معرفة مباشرة يقينية وليس يعرف الجسم الا بالظن والتخمين. فانا اذن حين ادرك نفسي كمفكر بالفعل، ادرك حقا وجودي بل ادرك زيادة عنه ادرك انيتي كلها في طبيعتها وماهيتها والواقع انه لا يخص انيتي الا ماهو موجود بمقتضى

فعل (الكوجيتو) وبهذا المعنى كنت ايضا موجودا يشك ويحس ويتخيل ويريد الخ . لكني كنت كذلك لان الشك والاحساس والتخيل والارادة ليست الا بالكوجيتو ولانها اولا في الحقيقة فكري (انا) . واذن فالفكر يعبر عن طبيعتي كلها : هو ماهيتها وصفتها الذاتية وكل ما يلائم الفكر يلائمني وكل ما ينافيه ينافيني واذن فليست امتدادا ولاشيئا مما ينطوي في فكرته على الامتداد لان الفكر عند تحليله لا يشتمل على شيء من الامتداد كما ان الامتداد لا ينطوي على شيء من الفكر .[56]

٢- وجود الله : وديكارت بعد أن اثبت وجود النفس او انه شيء يفكر فقد التفت إلى البحث في حالة تأمله عن فكرة سيطرت على الجميع وهي فكرة الكامل او اللامتناهي واستعان بها لأثبات وجود الله وهو اليقين الثاني للوصول للحقيقة واخذ فكرة اللامتناهي من اين وصلتني لابد ان اكون خلقتها لأني انا موجود ناقص متناهي وانا لست مصدر لهذه الفكرة وانما هي موجودة وان الله قادر عالم بكل شيء وله من الشرف والجلال ومن كل ذلك أن الله وجود كامل الوجود ومن خلال تأملات ديكارت وضع البراهين وادلة على اثبات وجود الله تعتمد على الأفكار والمبادئ الفكرية الموجودة في العقل .[57] والبراهين هي ثلاثة:

أ- البرهان السببي (العلة والمعلول) :- لم يكن باستطاعة ديكارت ان يثبت وجود الله بالادلة التقليدية التي ترجع من المخلوقات الى السبب الاول كالدليل القائم على النظام الكوني او دليل العلة الغائية لان مثل هذه الادلة تفترض وجود نظام في العالم وهو امر لايزال موضع شك وقد كان عليه ان ينطلق من نتائج قوله انا افكر فاذن انا موجود اي من وجود التفكير والانية التي تفكر وفي الحالتين عصب الدليل عبارة عن وجود فكرة في الذهن لا يمكن تفسيرها بالرجوع الى محدودية تفكيرنا والنقص الذي فيه. ومثال يدل على أن وجد شيء وجد شيء آخر هو سببه وهو يكون بصورة مباشرة فلا محال من ذلك يقول ديكارت " هو انني ما كنت اعرف انني كائن ناقص متناه الا عندما عملت بوجود كائن كامل وهذه الفكرة لم تكن مكتسبة وانما هي فطرية مغروسة في العقل ويعني ذلك أن لوجودي سبب فلا يوجد شيء الا وجود له سبب والكامل هو صفة من صفات الله فقط" [58].

ب- البرهان الشخصي (مبدأ الهوية):- وهذا البرهان مكمل للاول يعنى عندما عرفت انني انسان ناقص فقد شككت بانني لا احوي أي شيء من الكمال وان الكائن الكامل هو الله و بذلك لست انا خالق نفسي وانما هنالك سبب في وجودي وهو لايتركنى و موجود في كل لحظة من لحظات حياتي.[59]

ج- البرهان الانطلوجي (الوجودى): نظر ديكارت الى هذا الموضوع من ناحية انه قد لاحظ ان مطابقة الفكرة والوجود ليست قائمة لأي معنى اخر غير معنى الله سواء كان هذا المعنى خاصا بشيء مادي او ماهية كاملة كماهية المثلث مثلا الذي لا يتضمن الا وجودا ممكنا وعلى العكس من ذلك فان ماهية الله متضمنة وجوده ولاشك في ان ديكارت ما كان ليضيف هذا الدليل لو لم يتقرر عنده أنه صحيح فقد صرح بانه اختصر عن قصد على الادلة التي يعدل بيقين وضوحها ولاشك ان ماتتميز به فلسفة ديكارت هو الانتقال من الاقل الى الاكبر ومن ذلك نجد ان البرهان بفكرة اللامتناهي القائمة فينا يأتي من الدرجة الأولى بحسب الترتيب المنطقي لان الشك الشامل اصطدم بحقيقة حدسية بسيطة ومباشرة وغير قابلة للشك وهي اننا نفكر ولهذا يعد هذا البرهان هو الأساس ومن اقوى الأدلة واهمها لانه ينتقل فيها من الفكر إلى الوجود وهو وجود الله ليس وجود شيء اخر وعبر عن هذا البرهان أن يكون بصورة رياضية وهو منهجه الاساسي وقال فيه: (الكائن الكامل هو الذي يملك جميع الكمالات ولكن الوجود احد هذه الكمالات). واذن فمن التناقض الا يكون الكائن الكامل موجودا. وبذلك فان الله هو الكائن الذي ماهيته متضمنة فيه.[60]

٣- وجود العالم: قال ديكارت " اعلم الان اني موجود وان الله موجود انا موجود بمعنى ان لي نفس متميزة عن بدني وهي اذن قادرة على ان تبقى بدوني فهي خالدة لاتمت والله موجود ولليقين الله منزلة رفيعة عندي فمن دون الله كنت ابقى سجينا في (الكوجيتو) لا ابرحه ومن دونه كنت اعرف نفسي ولا اعرف شيء اخر لكن وجود الله ضمانا لكل علم ولكل يقين وبوجوده استطيع لان ان اعبر الهوة التي حفرها الشك بين فكري وبين الاشياء واستطيع ان اطمئن على وجود العالم الخارجي ذلك ان الميل الطبيعي القوي الذي اشعر به والذي يدعوني الى الاعتقاد بوجود ذلك العالم هو ميل يستحيل ان يسوقني الى ظلال ومادمت قد استنفذت من الله الذي هو الكامل الصادق الذي لا يخدع ولهذا اصبح الشك امرا مستحيلا وذهب مابقي لدي من ارتياب وحل محله ثقة بالعقل لا تتزعزع اذن استطيع ان اثق بالنتائج التي تفضي اليها الاستدلالات العقلية مهما يكن حضها من الطول والتعقيد ولكني اقول حين اذن انا المسؤول وحدي لاني حر وارادتي لامتناهية" .[61]

وبعد أن علم ديكارت أن الله موجود يستطيع الان ان يعبر الهوة او الفجوة التي زرعها الشك بين فترة وبين الاشياء الأخرى وان يطمئن إلى وجود العالم الخارجي و بذلك نستطيع أن ينتقل من معرفة الله إلى معرفة العالم الخارجي بقوله: "تخيل لي اني اهديت إلى طريق يؤدي بنا من تأمل الله

الصادق الذي يحتوي على كنوز العلم والمعرفة كلها إلى معرفة الأشياء الأخرى في الكون". [62] وان الذي يضمن العالم الخارجي هو وجود الله ولا يكون ذلك من خلال الحواس لانها قد تكون غامضة او مبهمة وانما تعتمد ايضا الوجود العقلي ومثال على ذلك هي قطعة الشمع وهي انه ما يطرأ عليه من المؤثرات تتغير من الخارج فقط وكذلك بالنسبة للحواس وبذلك يعني الحقيقة تبقى وبذلك فالعالم جزء من كل هذه الاجزاء والأشياء المادية الموجودة فيه تتغير واما الجوهر والأصل يبقى وهو خالقه (الله).[63]

وبعد ذلك كله نجد أن الميتافيزيقيا الجزء الأساسي في فلسفة ديكارت وهو لايستطيع الاستغناء عنها وان معظم مؤلفاته قائمة عليها وتكون الفلسفة الاولى اساس عمله فهو من خلالها يطرح الأسئلة ويجعل الإنسان دائما بحاجة إلى معرفة ودائما يتسأل وان مهتمه هي الكشف عن ما هو غامض ببراهين عقلية حقيقية يقينية كما يرغب بها ديكارت وبذلك هي منهج فلسفي ولكن بصورة عقلية من خلال النظر والتحليل يعني لايكون من خلال الحواس او المعرفة الروحانية فكل تجربة بحاجة إلى ميتافيزيقيا وان انكارها نوع من الانشغال بها و اساسي في حياتنا كما يقول عثمان امين عند ديكارت : (يمارس الميتافيزيقيا كما يمارس التنفس).[64]

المبحث الرابع : صلة المنهج بالأخلاق:

تعد العلاقة بين المنهج والأخلاق في فلسفة ديكارت علاقة فريدة ومعقدة، فهي ليست علاقة تأسيس مباشر بقدر ما هي علاقة ضرورة عملية ومرحلية. لم يبدأ ديكارت فلسفته ببناء نظام أخلاقي، بل على العكس، رأى أن الأخلاق الكاملة هي الثمرة النهائية لشجرة الفلسفة التي يجب أن تُبنى على أسس يقينية. ومن هنا، كانت الأخلاق التي قدمها في كتابه "مقال عن المنهج" بمثابة حل مؤقت وحيوي يسمح له بتطبيق منهجه الشكي دون أن تتجمد حياته العملية. ويمكن فهم هذه الصلة من خلال محورين أساسيين:

1- الأخلاق المؤقتة :ضرورة منهجية

عندما قرر ديكارت تطبيق منهجه الشكي، الذي يقتضي رفض كل ما يمكن أن يتطرق إليه الشك ولو من بعيد، واجه معضلة عملية كبرى: كيف يمكن للمرء أن يعيش ويتخذ قراراته اليومية بينما هو في حالة من الشك الجذري في كل شيء (الحواس، العادات، الآراء السائدة)؟ إن الشك المنهجي، إذا طُبّق على صعيد الفعل مباشرة، سيؤدي حتماً إلى التردد والشلل التام.لحل هذه المعضلة، وضع ديكارت ما أسماه "الأخلاق المؤقتة"، وهي عبارة عن مجموعة من القواعد العملية التي سيلتزم بها بشكل مؤقت، تماماً كما يسكن المرء في كوخ مؤقت أثناء هدم منزله

القديم وبناء منزل جديد على أسس صلبة. هذه الأخلاق ليست هي الأخلاق اليقينية النهائية، بل هي قواعد للحياة تسمح له بالاستمرار في العيش بسلام "بينما العقل في شك." تتكون هذه الأخلاق المؤقتة من ثلاث قواعد أساسية، وردت في الجزء الثالث من "مقال عن المنهج"،

القاعدة الأولى : أن يطيع الانسان قوانين بلاده وأن يحترم عاداتها ، مع الثبات على الديانة التي نشأ عليها ، وأن يدير شؤونه في سائر الامور تبعا لأكثر الآراء اعتدالا : التي أجمع على الرضاء بها أعقل الذين يعيش معهم. [65] يظهر أنه من التناقض الأخذ بهذه القاعدة الوثوقية في السياسة والدين، في منهج يعتمد أساسا على الشك، ولا يثق إلا في العقل كسلطة وحيدة في إصدار الأحكام إلا أن هذا التناقض يزول، متى علمنا أنها قاعدة أخلاقية، يجعلها ديكارت مؤقتة، إلى أن يقيم مبادئ الأخلاق دائمة. متجنبا في ذلك التسرع في إقامة مبادئ أخلاقية، قبل إكمال بحوثه في العلوم. وربما يعود ذلك إلى الحذر الذي يوليه ديكارت تجاه السلطات السياسية والدينية، والتي لا تتجاوب مع التغيير المفاجئ والجذري للمبادئ التي اعتادت عليها.[66]

القاعدة الثانية : أن يكون أكثر ما يستطيع ثباتا في أعماله ، وأن يتجنب الشك والتردد في سياسته ، مثله في هذا مثل المسافرين الذين يضلون في غابة ، اذا اتبعوا وجهة واحدة في سير هم خرجوا من الغابة و نجوا ، أما اذا ضربوا فيها من هنا مرة ، وها هنا مرة أخرى أو وقفوا فيها ضعف أملهم في النجاة والسلامة.[67]

فالإنسان لا يعرف دائما وبالضرورة الخير الذي يريد الوصول إليه، ولا الطريق التي تمكنه من ذلك. فيقع في حيرة من أمره، إلا أن ذلك لا ينبغي أن يجعله حبيس دائرة مفرغة، يتراوح مكانه بفعل التردد في اتخاذ القرار، وإنما عليه يقرر اتخاذ طريق ما، ويواصل فيها اتجاهه. يكون ذلك أسلم له بأن يجد المنفذ المناسب.[68]

وبمعنى اخر تتضمن هذه العبارة السابقة مبدأ اتخاذ القرارات، في وقتها، بدون تردد. ولكي يمكن ذلك، وضع ديكارت هنا توافقا أو تساويا، إذا تكلمنا بلغته الرياضية، بين كمية الثبات على الرأي المشكوك فيه، ومقدار الثبات في التمسك بالرأي نفسه إذا كان مؤكدا، أي أن يتبع كل رأي أخذ به، كان مبنيا على العقل، أو فقط لمقبوليته الاجتماعية، ونفعيته الإجرائية. وهذا يدفعه إلى "اتباع أكثر الآراء رجحانا" عندما يتعذر عليه تمييز الأصح منها، علما أن "أعمال الحياة، لا تحتمل في الغالب أي تأجيل" وهي تتطلب منا، من ثم، أن نختار بسرعة، حتى ولو كانت أسبابنا غير عقلانية. هذه الأخلاق الديكارتية المزعوم أنها، فقط، مؤقتة، والتي بدا بعيد ذلك أنها نهائية، لا تعير انسجام العقل مع نفسه أية قيمة، إذا يتعين على العقل الأخذ بالآراء المشكوك فيها، إن

لم يثبت أن نقائضها خاطئة. فيغدو المشكوك فيه صحيحا، وأمرا حقا، بواسطة هذا البرهان بالخلف. وهي أخلاق تتحاشى الندم، وتأنيب الضمير، في حالة ضياع الفرص، لأن هذين الإحساسين يتناقضان مع السعي إلى سعادة "نرجسية".[69]

القاعدة الثالثة : أن يجتهد المرء في مغالبة في ما نفسه من رغبات وشهوات لا في مغالبة الحظ أي مقاومة القدر . لأن أفكارنا مللت لنا نستطيع أن ننه حكم فيها كما نشاء وبهذا نستطيع الا نأسف لحرماننا من الأشياء التي لا نقدر على نوالها . وعلى هذا النحو نستطيع أن نعيم بالغني والقوة والحرية و كل أنواع السعادة .[70]

في هذه القاعدة، يطرح ديكارت إشكالية العلاقة بين الرغبات والواقع. فمادام الإنسان لا يملك القدرة على تغيير الواقع وفق رغباته، عليه أن يغير رغباته بما يتوافق مع الواقع. ويجعلها قابلة للتكيف مع نظام العالم. فيقتنع الإنسان بما لديه، بتقليص رغباته في حدود إمكانياته. يزول بذلك الصراع مع الذات، ويتحقق الاستقرار، ويعيش الإنسان في سعادة. إن تكيف الفرد مع القوانين السياسية والمعتقدات الدينية، والمبادئ الاجتماعية، السائدة في المجتمع، يمكن ديكارت من اتخاذ الأخلاق المؤقتة حصنا يحتمي به أثناء رحلة الشك، إلى أن يصل إلى إقامة نسق أخلاقي، بعد استكمال بحثه في سائر المعارف، والتي تكون الأخلاق ثمرة لها.[71] اذن، صلة المنهج بالأخلاق هنا هي صلة وظيفية .فالأخلاق المؤقتة هي أداة ضرورية لتطبيق المنهج الشكي، فهي تحمي الفيلسوف من فوضى الحياة العملية وتسمح لمشروعه الفكري بالاستمرار.

2. الأخلاق الكاملة: الثمرة النهائية للمنهج

أن الفلسفة الاخلاقية هي نتيجة المعرفة الميتافيزيقية التي تحدث عنها بانها ذات علاقة وثيقة بالفلسفة والمنهج فالأخلاق عند ديكارت ليس مذهبا مستقلا انما هي مرتبطة بها وموضوع فلسفة الأخلاق، والوصول إلى السعادة ولكن بطريقة شرعية وهي العمل وفقا لمبادئ العقل وان هذه المبادئ خاضعة لخالقها وهو الله (الكامل) وهذه التي يفعلها الكامل ليست من اجل مضرتنا وانما من اجل منفعتنا حتى يتصرف بحكمة وروية وثقة تامة بأنفسنا وافعالنا التي تكون مبنية على محبة الله فلا يوجد شخص توجد لديه أخلاق كاملة لان الكمال لله وحده فهو اساس كل العلوم والاخلاق فكما لديكارت منهج وقواعد في كل شيء وضعها ايضا للأخلاق وقال : " ان الايمان بالأخلاق يبطل الخوف من الموت وكذلك يدعونا إلى احتقار أمور الدنيا وخيراتها".[72] وتعد جزءا من قواعد الأخلاق وتكون الغاية من الأخلاق هي السعادة ولكن السعادة ليس لأنفسنا فقط وانما من اجل الاخرين وذلك يتضح من خلال السلوك الإنساني في المجتمع وتلك الأخلاق لا تكون

بمصلحة فردية وظاهرية فقط وانما بالعقل والقلب معا ولا يكون هذا العمل الأخلاقي من اجل الاعجاب بالنفس وانما يكون يسلكه لحصول السعادة وهو الجو الذي عاش فيه أو بالعكس مما يحدث اليه اضطراب وبالتالي فعليه التفكير الصحيح من أجل الوصول إلى النتيجة الصحيحة[73].والأخلاق عند ديكارت كسائر المعارف الاخرى وضع لها قواعد اسير عليها فهي جزء لا يتجزء من فلسفته .

وهكذا يكون ديكارت قد جعل من علم الأخلاق آخر مراتب الحكمة والعلوم. والبحث فيه يتطلب الماما كاملا بسائر أنواع المعرفة، الأمر الذي يتطلب معه عند محاولة بناء صرح أخلاقي جديد، القيام بهدم البناء القديم باستثناء المجال الديني، على اعتبار أن حقائقه ليست من صنع البشر. هذا التريث الذي جعل ديكارت يستثني المشكل الأخلاقي من منهج الشك الذي اعتمده في فلسفته، ربما يعود إلى نشأته الكاثوليكية، والتي جعلته ملتزما بمبادئ الكنيسة. فقد كان ديكارت تلميذا لليسوعيين، وهم جماعة دينية قاموا بمقاومة الإصلاح البروتستانتي، والعمل على تجديد الكنيسة الكاثوليكية، عن طريق توجيه المؤمنون بهم من حكام وقادة توجيها عمليا وسياسيا، وإنشاء المدارس والجامعات في مختلف أنحاء أوروبا، لتربية أولادهم وتثقيفهم وفق مبادئهم. ولا شك في أن اليسوعيين قد ساهموا بتربيتهم هذه في الطمأنينة التي تمتع بها ديكارت، وفي جو الذي عاش في. وربما هو السبب جعله يقترح مبادئ أخلاقية، قائمة على أساس ترسيخ ما هو قائم، في إطار ما يعرف بالأخلاق المؤقتة. ويبقى المشكل الأخلاقي مطروح، يتناوله البحث الفلسفي، وسواء توصل هذا البحث إلى أخلاق نهائية أو مؤقتة موضوعية أو ذاتية مطلقة أو نسبية، تبقى نتائجه انعكاسا لموقف الفيلسوف من المشكل وانعكاسا للمشكل من بيئة الفيلسوف. وعليه، حتى وان كان ديكارت قد اعترف بأن الأخلاق التي وضع لها قواعد تبقى مجرد أخلاق ،مؤقتة، فان غيره من الفلاسفة الذين أسسوا لأخلاق اعتقادا منهم أنها نهائية، لم تكن كذلك، بل هي مؤقتة من منطلق زمانها، ومكانها، ومن منظور نقادها والشاهد على ذلك، اختلاف المذاهب الأخلاقية، إلى درجة التناقض أحيانا، والمواقف التي تتبناها في ضبط الأساس الذي يصلح أن يكون معيارا للفعل الأخلاقي. [74]

وبذلك الحديث كله يريد ديكارت أن يوضح أن الأخلاق في صميمها هي اخلاق عقلية وان اطمئنان النفس وسعادتها هي او في جزء في الحياة وفقا لمطالب العقل ،[75] ولم يتردد ديكارت بذلك بقوله " بان العقل كافيا اذا وجه توجيها صحيحا فهو يؤدينا إلى اعلى و اكمل الأخلاق والاخلاق التي طلبها ديكارت هي اخلاق عملية وفقا للعقل" .[76] إن العلاقة بين المنهج والأخلاق

عند ديكارت هي علاقة ديناميكية تبدأ بـ "أخلاق للمنهج " (الأخلاق المؤقتة التي تخدم تطبيق المنهج) وتنتهي بـ "أخلاق من المنهج " (الأخلاق الكاملة التي هي نتيجة وثمرة تطبيق المنهج). فالأخلاق في البداية شرط ضروري للبحث عن الحقيقة، وفي النهاية هي الغاية الأسمى لذلك البحث. لقد فصل ديكارت مؤقتاً بين النظر والعمل، لكي يعود ويوحدهما على أساس من اليقين العقلي الذي لا يتزعزع. وعلينا دائما أن نكون حريصين في حياتنا على أن نضع الاخلاق السامية فوق التقلبات وأن نبذل كل جهدنا لكي نخلق لأنفسنا جو السعادة والطمأنينة ورغم كل ذلك فان الله اعلم بما سيحدث في المستقبل .

الخاتمة :

في ختام هذا البحث، نصل إلى حقيقة مفادها أن المنهج الديكارتي لم يكن مجرد أداة للبحث الفلسفي، بل كان ثورة حقيقية أعادت تشكيل وجه الفلسفة الغربية الحديثة. فمن خلال،قواعده الصارمة،القائمة على الشك المنهجي، والوضوح والتميّز، والتحليل، والتركيب، والإحصاء، استطاع ديكارت أن يؤسس بناءً فلسفياً متكاملاً انطلق من الذات المفكرة ليصل إلى العالم والله. ويمكن تلخيص النتائج الأساسية للمنهج الديكارتي وأثره في الميتافيزيقا والأخلاق في النقاط الحاسمة التالية:

1- في المجال الميتافيزيقا: لقد تجلى أثر هذا المنهج بوضوح في ميدان الميتافيزيقا، حيث أدت،رحلة الشك إلى اليقين الأول والأوحد: "أنا أفكر، إذن أنا موجود" (الكوجيتو). هذا اليقين لم،يثبت وجود الأنا كجوهر مفكر فحسب، بل أصبح النقطة الأرتكازية التي بنى عليها،ديكارت إثبات وجود الله، ومن ثم وجود العالم،المادي. وبهذا، أسس لديكارت لثنائية (النفس والجسد) التي ظلت إشكالية رئيسية في الفلسفة لقرون، كما رسّخ لميتافيزيقا عقلانية تضع ثقتها المطلقة في قدرة العقل على إدراك الحقائق الجوهرية للوجود.

2- في مجال الأخلاق، فعلى الرغم من أن،ديكارت لم يترك لنا نظاماً أخلاقياً،كاملاً ومفصلاً كنظامه الميتافيزيقي، إلا أن أثر منهجه كان عميقاً. فقد وضع ما أسماه "الأخلاق،المؤقتة"، وهي مجموعة من القواعد العملية التي تهدف إلى تنظيم الحياة ريثما يصل العقل إلى،الحقيقة الكاملة. هذه الأخلاق، القائمة على الامتثال للقوانين، والثبات على العزم، ومحاولة تغيير الذات لا العالم، والبحث عن الحقيقة، كشفت عن نزعة عقلانية قوية تهدف إلى سيطرة الفرد على أهوائه،وانفعالاته من خلال قوة الإرادة المستنيرة بالعقل. لقد

كان المشروع الأخلاقي الديكارتي يهدف في غايته إلى تأسيس أخلاق علمية ويقينية، تستمد مبادئها من الميتافيزيقا وتؤدي إلى تحقيق السعادة والسكينة.

وهكذا، يتضح أن المنهج الديكارتي كان،بمثابة الخيط الناظم الذي ربط بين الميتافيزيقا والأخلاق في فلسفته. فاليقين الذي سعى إليه في الميتافيزيقا كان هو الأساس الضروري لبناء أخلاق عقلانية متينة. لقد دشّن ديكارت عصراً جديداً جعل من الذات المفكرة،وسلطة العقل المنطلق الأساسي لكل معرفة ولكل فعل، تاركاً بصمة لا تُمحى على مسار الفكر،الفلسفي من بعده. في النهاية يمكن القول ان المنهج الديكارتي فتح،الباب لعصر جديد من،الفكر الفسفي حيث اصبح،الشك والبحث عن الحقيقة اساسين،للبحث الفلسفي . وهذا ما يجعل، دراسة ديكارت واثاره الفكرية،ذات اهمية كبيرة لفهم التطورات،الفلسفية اللاحقة .

الهوامش :

---

[1] – رسل ، براندتد ، تاريخ الفلسفة الغربية ، ترجمة محمد فتحي الشنيطي ، القاهرة ، ج٣، ط3، ١٩٧٧، ص ١١.

[2] - ينظر ، كرم ، يوسف ، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط ، دار القلم ، بيروت 1979 ، ص٢٨.

[3] - ينظر ، كامل، فؤاد وآخرون ، موسوعة الفلسفية المختصرة ، دار القلم،بيروت –لبنان ،1983 ، ص ١٩١ .

[4] - ينظر ،كرم ، يوسف ،المصدر نفسه ، ص ٨٠ - ٨٨.

[5] - ينظر ،بدوي ، عبد الرحمن ، فلسفة العصور الوسطى ،منشورات دار القلم ، بيروت ، ط3 ،1979 ،ص 69-٧٠.

[6] - ينظر ، زقزوق ، محمد حمدي : المنهج الفلسفي بين الغزالي و ديكارت ، القاهرة ، ط ٢ ،1981 ، ص ١٢٧-١٢٩.

[7] - ينظر ، زقزوق ، محمد حمدي، المصدر نفسه، ص 129.

[8] - ينظر ، أمين ، عثمان ، محاولات فلسفية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1967 ،ص ٢٢٢ – ٢٢٣.

[9] -ديكارت ، رينيه ، مقال عن المنهج ، ترجمة ، محمود محمد الخضيري ، ط3، الهيئة العامة للنشر، الاسكندرية ،1985،ص165.

[10] - ينظر ،غالب مصطفى ، في سبيل موسوعة فلسفية (ديكارت) ، منشورات دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص56-58

[11] - ينظر، غالب ، مصطفى : في سبيل موسوعة فلسفية (ديكارت) ، المصدر السابق ، ص60

[12] - ينظر ، ديكارت ،رينيه، تأملات في الفلسفة الأولى ،عثمان امين ، مطبعة القاهرة الحديثة ، ط3، القاهرة ، 1965، ص ٧٩.

[13] - ينظر ،أمين ، عثمان ، ديكارت ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٠ ،ص 85-86.

[14] - ينظر ، ديكارت ، رينيه، مقالة الطريقة، ترجمة جميل صليبا ، الجنة اللبنانية للترجمة ، بيروت ، ط2، 1970،ص52

[15] - ينظر ، الحاج ، كمال يوسف ،مدخل الى فلسفة ديكارت ، منشورات عويدات ، بيروت ، ط1، 1961، ص28-30.

[16] - ينظر،ديكارت ، رينيه ، قواعد توجيه الفكر ، ترجمة سفيان سعد الله ، دار سراس للنشر والتوزيع ، تونس ، 2001، ص36.

[17] - ينظر ، ديكارت ، رينيه : مقالة الطريقة ،المصدر السابق ، ص 24-26

[18] - ينظر ، ديكارت ، رينيه ، قواعد توجيه الفكر ، المصدر نفسه ، ص 36.

[19] - ينظر ،غالب ، مصطفى ، في سبيل موسوعة فلسفية (ديكارت)، المصدر السابق ، ص67.

[20] - ينظر ،توماس ، هنري ، اعلام الفلسفة ،(ديكارت) ، ترجمة عثمان امين ،ط 3، دار النهضة العربية ، القاهرة ،1964، ص 90.

[21] - ينظر ، توماس ، هنري، المصدر نفسه ، ص90-91

[22] - ينظر ، ديكارت ، رينيه ، قواعد توجيه الفكر ، المصدر السابق ، ص30.

[23] - ينظر، توماس ، هنري، اعلام الفلسفة (ديكارت) المصدر السابق ص91-92.

[24] -ينظر ، ديكارت، رينيه ، قواعد توجيه الفكر ، المصدر السابق ، ص 37.

[25] - ينظر ،غالب ، مصطفى ، في سبيل موسوعة فلسفية (ديكارت) المصدر السابق ، ص71-72.

[26] -ينظر ،ديكارت ، رينيه، مقال عن المنهج ، المصدر السابق ، ص 143.

[27] - ينظر ، الطويل، توفيق ، اسس الفلسفة ، دار الهنا للطباعة ، ط 6. (ب.ت) ،ص148.

[28] - ينظر ،احمد ، قيس هادي ، نظرية العلم عند فرنسيس بيكن ، مطبعة المعارف – بغداد ، سنة 1980. ص 312

[29] - ينظر،ديكارت ، رينيه ، مقالة الطريقة ، المصدر السابق ، ، ص 27.

[30] - ينظر ، ديكارت ، رينيه ، مقالة الطريقة ،المصدر نفسه ، ص 28-29

[31] - ينظر ،ديكارت، رينيه ، قواعد لتوجيه الفكر ، المصدر السابق ، ص45.

[32] - ينظر ، الطويل ، توفيق ، اسس الفلسفة ، المصدر السابق ، ص 149

[33] - ينظر ،ديكارت ، رينيه ، المقال عن المنهج ، المصدر السابق ، ص 21-22 .

[34] - ينظر ،الطويل ، توفيق ، اسس الفلسفة ، المصدر السابق ، ص150

[35] - ينظر ،الحاج ، كمال يوسف ، مدخل الى فلسفة ديكارت ،المصدر السابق ، ص 42

[36] - ينظر، ديكارت ، رينيه ، مقالة الطريقة ، المصدر السابق ، ص35

[37] - ينظر ،احمد ، قيس هادي ،نظرية العلم عند فرانسيس بيكن ، المصدر السابق ، ص313

[38] - ينظر ،توماس ، هنري ، اعلام الفلسفة (ديكارت) ،المصدر السابق ، ص111

[39] - ينظر ،غالب ، مصطفى ، في سبيل موسوعة فلسفية (ديكارت) المصدر السابق ، ص 79-80

[40] - ينظر ،ديكارت ، رينيه ، تأملات ميتافيزيقا في الفلسفة الاولى ، ترجمة د. كمال يوسف الحاج ، منشورات ط4، بيروت ، 1988،ص 47

[41] - ينظر ، توماس ، هنري، اعلام الفلسفة (ديكارت) المصدر السابق. ص119.

[42] - ينظر ،ديكارت، تأملات في الفلسفة الاولى ، المصدر السابق ، ص48-49.

[43] - ينظر ، توماس ،هنري ، المصدر السابق، 120-122.

[44] - ينظر توماس ، هنري ، اعلام الفلسفة (ديكارت) المصدر السابق122

[45] - ينظر ، الحنفي ،عبد المنعم ، الموسوعة الفلسفية ، دار ابن زيدون -بيروت، مكتبة مدبولي – القاهرة ط1، ص190-191

[46] - ينظر ،غالب ، مصطفى ، في سبيل موسوعة فلسفية (ديكارت) ، المصدر السابق ، ص88

[47] - ديكارت ، مبادئ الفلسفة ، ترجمة عثمان أمين ،ج1، دار الثقافة للنشر والتوزيع ،د.ط،، 1975، ص20.

[48] - ينظر ،ديكارت ،مبادئ الفلسفة ، المصدر نفسه ، ص 28

[49] - ينظر ،أمين ، عثمان ، محاولات فلسفية ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، 1967، ص 28-30

[50] - ينظر، ديكارت ، رينيه ، تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الاولى ، المصدر السابق ، ص108.

[51] - ينظر ،ديكارت ، رينيه ، المصدر نفسه ، ص69

[52] - ينظر ديكارت ، رينه ، المصدر نفسه ، ص95.

[53] - ينظر ، ديكارت ، مقال عن المنهج ، ترجمة محمود محمد الخضيري ، ط2، القاهرة : دار الكتاب العربي والنشر ، 1968، القاهرة ، ص 83.

[54] - ينظر ديكارت ، تاملات فلسفية ، المصدر السابق ، ص 73.

[55] - ينظر ديكارت ، تاملات فلسفية ، المصدر السابق ، ص 73.

[56] - ينظر : ديكارت ، مبادئ فلسفة ، المصدر السابق ، ص 87.

[57] - ينظر ، ديكارت ، رينيه ،المصدر نفسه، ص69 ، وينظر ص 73، ص118

[58] -ينظر ،ديكارت، رينيه ، المصدر نفسه ، ص50.

[59] - ينظر ،ديكارت، رينيه ، تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الاولى ، المصدر السابق، ص105-106

[60] - ينظر ، فال ، جان ، الفلسفة الفرنسية من ديكارت الى سارتر ، ترجمة فواد كامل العربي للنشر ،دار الكتاب للنشر ، القاهرة ، بلا. ط ، بلا ت .، ص21

[61] - ينظر ، ديكارت ، رينيه ، تأملات في الفلسفة الأولى ، ص101.

[62] - ينظر ،ديكارت ، رينيه ، ، المصدر نفسه، ص176

[63] - ينظر ،ديكارت ، رينيه ،تأملات في الفلسفة الأولى ، المصدر نفسه ، ص176

[64] - ينظر ،أمين ، عثمان ،محاولات فلسفية ،المصدر السابق ، ص ٩٣ - 94.

[65] - ينظر ، ديكارت ، رينيه ،مقال عن المنهج ، المصدر السابق ، ص 200.

[66] - بلدي ، عبد المجيد عثمان ، الاخلاق المؤقتة عند ديكارت ، مجلة دراسات فلسفية ،المجلد 15، العدد2،الجزائر ، 2018

[67] - ينظر ، ديكارت ، رينيه ،مقال عن المنهج ، المصدر السابق ، ص0201

[68] - بلدي ، عبد المجيد عثمان ، الاخلاق المؤقتة عند ديكارت ، المصدر السابق .

[69] - ينظر ،الخشين ، محمد ، مقالة http://www.tafalsouf.com/Pages/EtudeLakhchineEthiqueDescartes.htm

[70] - ينظر ، ديكارت ، رينيه ،مقال عن المنهج ، المصدر السابق ، ص 201

[71] - بلدي ، عبد المجيد عثمان ، الاخلاق المؤقتة عند ديكارت ، المصدر السابق .

[72] - ينظر ، ديكارت ، رينيه ، مقالة الطريقة، المصدر السابق ، ص 58.

[73] - ينظر ، ديكارت ، رينيه ، مقالة الطريقة، المصدر نفسه ، ص 59-60

[74] - بلدي ، عبد المجيد عثمان ، الاخلاق المؤقتة عند ديكارت ، المصدر نفسه .

[75] - ينظر ،توماس، هنري ، اعلام الفلسفة (ديكارت) ، المصدر السابق ، ص 255-256.

[76] -ينظر ، ديكارت ، مقالة عن المنهج ، المصدر السابق ، ص 203.

المصادروالمراجع :

1. احمد ، قيس هادي، نظرية العلم عند فرنسيس بيكن ، مطبعة المعارف – بغداد ، سنة 1980.
2. أمين ، عثمان ، ديكارت ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، طه ، ١٩٩٠ .
3. أمين ، عثمان ، محاولات فلسفية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1967 .
4. بلدي ، عبد المجيد عثمان ، الاخلاق المؤقتة عند ديكارت ، مجلة دراسات فلسفية ،المجلد 15، العدد2،الجزائر ، 2018
5. توماس ، هنري ، أعلام الفلسفة، ترجمة عثمان أمين ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ط3 ،1964 .
6. الحاج ، كمال يوسف ،مدخل الى فلسفة ديكارت ، منشورات عويدات ، بيروت ، ط1، 1961.
7. الحنفي ، عبد المنعم ، الموسوعة الفلسفية المختصرة ، دار ابن زيدون -بيروت، مكتبة مدبولي – القاهرة ، (د،ت)
8. الخشين،محمد،مقالة http://www.tafalsouf.com/Pages/EtudeLakhchineEthiqueDescartes.htm
9. بدوي ، عبد الرحمن ، فلسفة العصور الوسطى ، منشورات دار القلم ، بيروت ، ط3 ،1979
10. ديكارت ، رينيه ، تأملات ميتافيزيقا في الفلسفة الاولى ، ترجمة د. كمال يوسف الحاج ، منشورات ط4، بيروت ، 1988.
11. ديكارت ، رينيه ، تأملات في الفلسفة الأولى ، ترجمة عثمان امين ، مطبعة القاهرة الحديثة ، القاهرة ، ط3، 1965.
12. ديكارت ، رينيه ، قواعد توجيه الفكر ، ترجمة سفيان سعد الله ، دار سراس للنشر والتوزيع ، تونس ، 2001
13. ديكارت ، رينيه ،مبادئ الفلسفة ، ترجمة د. عثمان امين ، دار الثقافة ، القاهرة ، 1975.
14. ديكارت ، رينيه ،مقالة الطريقة، ترجمة جميل صليبا ، الجنة اللبنانية للترجمة ، بيروت ، ط2، 1970.

15. ديكارت ، مقال عن المنهج ، ترجمة محمود محمد الخضري ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ط2 قاهرة ، 1968.
16. رسل ، براندتد ، تاريخ الفلسفة الغربية ، ترجمة محمد فتحي الشنيطي ، القاهرة ، ج٣، ط3، ١٩٧٧.
17. زقزوق ، محمد حمدي ، المنهج الفلسفي بين الغزالي و ديكارت ، القاهرة ، ط ٢ ،1981.
18. الطويل، توفيق ، اسس الفلسفة ، دار الهنا للطباعة ، ط 6. (ب.ت) .
19. غالب ، مصطفى ، في سبيل موسوعة فلسفية (ديكارت) ، منشورات دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٧٩ .
20. فال ، جان ، الفلسفة الفرنسية من ديكارت الى سارتر ، ، ترجمة فواد كامل العربي للنشر ،دار الكتاب للنشر ، القاهرة ، بلا. ط ، بلا ت .
21. كامل ، فؤاد والاخرون ، موسوعة الفلسفية المختصرة ، دار القلم،بيروت –لبنان ،1983.
22. كرم ، يوسف ، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط ، دار القلم ، بيروت 1979 .

Sources and references:

1.Ahmed, Qais Hadi: Francis Bacon's theory of science, Al-Ma'arif Press - Baghdad, 1980.

2. Amin, Othman: Descartes, Anglo-Egyptian Library, Caio, Taha, 1990.

3. Amin, Othman: Philosophical Attempts, Anglo-Egyptian Library, Cairo, 1967.

4. Baladi, Abdul Majeed Othman, Temporary Ethics in Descartes, Journal of Philosophical Studies, Volume 15, Issue 2, Algeria, 2018.

5. Thomas, Henry: Notable Figures of Philosophy, translated by Othman Amin, Dar Al-Nahda Al-Arabiya, Cairo, 3rd edition, 1964.

6. Al-Hajj, Kamal Youssef: An Introduction to Descartes' Philosophy, Oweidat Publications, Beirut, 1st edition, 1961.

7. Al-Hanafi, Abdel Moneim, The Concise Philosophical Encyclopedia, Dar Ibn Zaydoun - Beirut, Madbouly Library - Cairo, (D, T)

8. Badawi, Abdul Rahman: Medieval Philosophy, Dar Al-Qalam Publications, Beirut, 3rd edition, 1979.

9. Al-Khashin,Muhammad,Article tafalsouf.com/Pages/EtudeLakhchineEthiqueDescartes.htm

10. Descartes, René, Metaphysical Meditations on First Philosophy, translated by Dr. Kamal Youssef Al-Hajj, 4th edition publications, Beirut, 1988.

11. Descartes, René: Meditations on First Philosophy, translated by Othman Amin, Modern Cairo Press, Cairo, 3rd edition, 1965.

12. Descartes, René, Rules for Directing Thought, translated by Sufyan Saadallah, Saras Publishing and Distribution House, Tunisia, 2001

13. Descartes, René: Principles of Philosophy, translated by Dr. Othman Amin, House of Culture, Cairo, 1975.
14. Descartes, René: Essay on Method, translated by Jamil Saliba, The Lebanese Paradise for Translation, Beirut, 2nd edition, 1970.
15. Descartes, An Essay on Method, translated by Mahmoud Muhammad Al-Khudari, Dar Al-Katib Al-Arabi for Printing and Publishing, 2nd edition, Cairo, 1968.
16. Russell, Brandt: A History of Western Philosophy, translated by Muhammad Fathi al-Shiniti, Cairo, vol. 3, 3rd edition, 1977.
17. Zaqzouq, Muhammad Hamdi: The philosophical approach between Al-Ghazali and Descartes, Cairo, 2nd edition, 1981.
18. Al-Taweel, Tawfiq, Foundations of Philosophy, Dar Al-Hana Printing, 6th edition. (B.T.).
19. Ghalib, Mustafa: For the sake of a philosophical encyclopedia (Descartes), Al-Hilal Library Publishing House, Beirut, 1979.
20. Fall, Jean: French philosophy from Descartes to Sartre, translated by Fawad Kamel Al-Arabi Publishing House, Dar Al-Kitab Publishing House, Cairo, none. i, not.
21. Kamel, Fouad and the others, The Concise Philosophical Encyclopedia, Dar Al-Qalam, Beirut - Lebanon, 1983.
22. Karam, Yo[76]ussef: The History of European Philosophy in the Middle Ages, Dar Al-Qalam, Beirut 1979.

The Approach of Descartes and its Impact on Metaphysics and Ethics

Assist Lect. Rasha Hameed Salih

College of Arts- University of Mosul

Rasha_salih@uomosul.edu.iq

Keywords: Descartes, method, metaphysics, ethics

Summary:

Descartes sets the general framework for philosophy—as he sees it—when he likens it to a tree: its root is metaphysics, its trunk is the science of nature, and its branches represent the rest of the sciences, which he limits to three medicine, mechanics, and ethics. Anyone who examines Descartes' philosophy and his stance on philosophy can easily conclude that he aims at two things: trust in God Almighty, the All-Knowing, the Wise, and trust in the perceptive mind. His philosophy is one of reason, which opens to humankind the horizons of knowledge and learning, illuminating both the heavens and the earth. With proper use of one's perceptive mind and unwavering trust in God, the Creator of the universe, man attains happiness, maintains his health, and establishes peace among individuals and societies. It appears from Descartes' depiction of philosophy that he takes the highest principles and metaphysical truths as the foundation of his thought, relying first and foremost on reason. Descartes rejected all previous knowledge to start from a fixed point, which would serve as the foundation of his thought and as a pillar for constructing his philosophical doctrine in both the natural and metaphysical realms. If Archimedes sought a fixed, immovable point from which he could displace the Earth, then Descartes, similarly, believed he had the right to place his greatest hopes on the existence of something absolutely certain, should fortune favor him, as he put it. To him, the most reliable truths were those acquired through the senses. However, his experiences sometimes led him to question sensory perception, which in turn motivated him to develop an intellectual framework that would serve as a fertile foundation for metaphysical inquiry.